الثورات الكبرى

الثورة حركة عنيفة تثور في ركان القلب البشري المعقد بقيود العادات الضارة عند ما تتراءى لهُ الحقيقة المنيرة المنعشة وتتأجج نيرانها في الدماغ المفكر الذي يأبى ان يقيد بسلاسل الترهات والاوهام . وتهب عاصفتها في النفس الابية التي تؤثر الموت على الذل والخنوع

الثورة هي روح التمرد على النظام الاجتماعي الفاسد الذي يحسب السارق الغني قويًا شريفاً ويحترمهُ واللص الفقير دنيئاً محتالاً ويحتقرهُ ويتكل بهِ ثم يقول ان ذلك جدير بالاكرام والاحترام وهذا مستحق للقصاص الصارم الذي تقضي بهِ العدالة بل الاستبداد . والغاية القصوى التي تجاهد الثورة في سبيلها هي تقويم عوج الاجتماع واصلاح فساد العمران

والثورات الكبرى التي شهدها التاريخ فاثرت في مجراهُ تأثيراً واسماً ثلاث — الثورة الفكرية والثورة السياسية والثورة الاجتماعية

الثورة الفكرية

ما كادت تتزعزع دعائم الامبراطورية الرومانية امام هجمات قبائل البربر حتى عمّ العالم المتمدن ظلمة حالكة خيمت على عقول ابناء القرون الوسطى . فسمي ذلك العصر بالقرون المظلمة . خبط الناس في دجور من الخرافات والاوهام خبط عشواء فلم يجسر احد ان يقول خلاف ما نصّ عليهِ افلاطون او صرّح بهِ ارسطو . وكان ليلاً حالكاً لم يبزغ فجرهُ الا عندما قام روجر باكون رسول العلم الحديث في القرن الثالث عشر وصرّح ان ارسطو على واسع اطلاعهِ واختباره ودقة علمهِ وسعة نظره انما غرس بزرة العلم التي ستنمو شجرة كبيرة وتمتد منها الفروع الى كل الانحاء فتثمر ثمراً شهيًا للنظر نافعاً للنفس . ولذلك نصح لمعاصريهِ ان ينصرفوا عن البحث في اقوال الفلاسفة الاقدمين الى درس احوال الاشياء التي لها علاقة كلية بحياتهم اليومية واشار عليهم ان يستعملوا الاسلوب العلمي للوصول الى الحقائق المجردة — ذلك الاسلوب المبني على الملاحظة والقياس والاستنتاج .

وبتصريحهِ هذا وبنصيحتهِ أثار ثورةً كبرى قلبت العلم رأساً على عقب ولاسيما في الامور الدينية وكان نجاحهُ باهراً

بدأت الحركة الفكرية المدعوّة بالتجدد او النهضة [1] في ايطاليا في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد فانقلبت طرق البحث والاكتشاف وتغيرت اساليب التعليم والتدريس فنشأ دانتي واسكر العالم بشعرهِ ورقائيل فادهش المتأخرين بصورهِ وانجلو فحرّ بنقشهِ وكوبرنيكس وغليليو فغيرا افلاسفة باكتشافاتهما واصبحا بذلك انبياء العلوم الطبيعية الحديثة المبنية على الحساب الرياضي الدقيق. وخاض كلٌّ من كولمبوس وماركو بولو عباب اليم فكشفا القناع عن بلدان جديدة غنية بكنوزها المدفونة وثروتها المطمورة

نعم مات هؤلاء الابطال لكن ارواحهم بقيت ترفُّ في فضاء المدارس والجامعات ومعاهد التعليم فبعثت في نفوس التلامذة حب الاكتشاف والاختراع فبرز غوتنبرج آلة الطباعة التي تفوق بقية الاختراعات في نفعها وكان من تأثيرها انتشار العلوم والفنون والمعارف بواسطة الكتب والصحف. واكتشف نيوتن قوانين الحركة والجاذبية ونسقها تنسيقاً علمياً فصارت الاساس لكثير من العلوم العصرية. واخترع وط وستيفنسن الآلة البخارية فنتجت الثورة الصناعية الكبرى التي بدأت في انكلترا في اواسط القرن الثامن عشر وكانت الدافع الاكبر لاختراع الآلات الصناعية العديدة والاساليب الزراعية الحديثة والعلوم الهندسية الكبيرة النفع

الثورة السياسية

تدرج الانسان في معارج الرقي فبعد ان كان وحيداً فريداً يقطن الغابات ويأوي الى الكهوف وجد انهُ خير لهُ ان يتعاون مع انسان آخر على درء الاخطار وتذليل الصعاب والسعي معاً لتسهيل اسباب الارتزاق. فنتج عن هذا التعاون والتحالف والتكاتف المجتمع القديم واساسهُ العلاقات الزوجية والصلات الوالدية فكان لكل مجتمع شخص يجلونهُ ويحترمونهُ يطيعونهُ بما يأمر ويعملون حسب ما يرتأي

(١) Renaissance or New Birth

ومرّ على المدنية قرون طوال وهي تنتقل من طور الى طور وتتقدم من حالة الى حالة افضل منها حتى وصلت الى ما هي عليهِ الآن من الرفعة وسمو المرتبة

عرف المجموع اثناء هذه التقلبات سلطة الوالد والشيخ في القبيلة والعشيرة . وذاق انواع العذاب في عهد الحكومات الاقطاعية وسلطة الاشراف حتى قنط من بؤسه وتعسهِ في ايام الملكية المطلقة التي كان يدعي اصحابها انهم يحكمون بحق الهي فهبّ كل شعب يأبى الضيم ولا ينام على الذل ونادى بحرية بني الانسان ومساواتهم فكان ذلك النداء كصباح انبعث نورهُ الى انحاء المعمور فكانت الثورات التي تلت العروش وقوّضت اركان سلطة المستبدين العتاة

***

عند ما نذكر الثورة الافرنسية ينتصب في مخيلتنا شبح الموت المخيف مخيماً في شوارع باريس جنة الغرب وتمثل امامنا صورة النطع تقطع عليهِ اعناق الابرياء وتهدر دماؤهم وترن في آذاننا اصوات البؤساء والتاعسين وتعكس لنا صفحات التاريخ صور الجماهير امام الباستيل تدك معاقلهُ وتحفر اساساتهِ وتتركهُ اثراً بعد عين . وتهتز اوتار نفوسنا لاصوات الشعب وهو ينادي بالحرية والمساواة والاخاء ثم بين صراخ اليتيم والتاعس ومشاهد الذل والبؤس نُشاهد شخص الملك لويس السادس عشر وقد علت جبينهُ صفرة الموت وبدت على وجههِ امارات الحيرة والدهشة وانبعثت من عينيهِ اشعة الخيبة والفشل وتجلى في هيئتهِ الرعب والخوف لان الشعب الثائر جاء يقتصّ منهُ لاجل مظالم ابائهِ واجداده وقام يحاكمهُ عن آثامهِ وآثام اسلافهِ فاصبح الرجل الضعيف بعد ان كان السيد المطاع ونزلت في قصور آل بوربون الفخمة رجال الشعب وابطال الحرية

اذاً ما هو تأثير الثورة الافرنسية اذا لم يكن قد خالفها الاّ الخراب والدمار والقتل والنهب والفوضى ؟ ولماذا هي خالدة في التاريخ. ان وراء الثورة الافرنسية غير الفظائع والجرائم

ثار الشعب الافرنسي لان حالتهُ الاجتماعية في اواخر القرن الثامن عشر لم تعد تنطبق على النظام القديم وما ينطوي تحتهُ من ادّعاء الملك انهُ يملك بحق الهي وان افراد الشعب خدمتهُ بل عبيدهُ يجب عليهم ان يطيعوهُ الطاعة العمياء فضلاً

عما كان في ذلك النظام من عدم المساواة بين طبقات الشعب وامتهان الطبقة العامة وهضم حقوقها الاجتماعية والسياسية

ان رأس الحكومة يجب ان يجمع بين العزم والحزم وقوة الارادة وسعة الاطلاع وحسن التدبير وما اشبه من المناقب فاذا لم تجتمع فيه فلا الاله يرضى به ملكاً ولا الشعب المستنير يصبر على سياسته الخرقاء

قال كارليل « الطاعة واجبة ولكن لمن يستحق ان يطاع والسلطة ضرورية ولكن في يد من يقدر ان يستعملها بحكمة . فويل للذي يرفض الطاعة لمن هو حريّ بها وويل لمن يطلب السلطة وهو بها غير جدير . اعطني الرجل الذي يحوي كل الصفات التي يجب ان تجتمع في الحاكم فهو يملك عليّ بحق الهيّ »

اثبت الشعب الافرنسي بحركته البركانية ان للشعب القول الفصل في تعيين رئيس حكومته نظراً الى كفاءة الانسان ومقدرته الادارية والسياسية لا الى شرف بيته وكرم محتده

وجدت الحكومة والغاية من وجودها خدمة المجموع بكل الوسائط التي تتوصل بها الى زيادة رفاه افراده ورفع مستوى معيشتهم . فالافرنسيون قد اثبتوا للملوك المستبدين ان الملك ليس تجارة خصوصية يتصرف بها الملك كما تشاء مصلحته ويشاء المقربون اليه بل هو الشعب او مفوضوه ونوابه الذين يحق لهم ان يسنوا القوانين ويعينوا الضرائب ويرتبوا النظامات ولذلك بعد تطورات عديدة قرر الشعب الافرنسي ان الحكومة الجمهورية النيابية هي خير اسلوب للاحتفاظ بهذا المبدأ الهام

ثم ان الثورة الافرنسية برهنت للعالم المتمدن ان لا فرق بين الغني والفقير ولا بين الصعلوك والامير . أو بين الشريف والوضيع — امام العدل والحق . فالناس جميعهم مهما كان مولدهم ومهما كانت حرفتهم هم امام الحق والقانون سواء

***

التدمير سهل والبناء صعب . والافرنسيون بثورتهم الدموية التي اضرموا نيرانها سنة ١٧٨٩ قوضوا اركان البناء السياسي القديم القائم على استبداد الملوك بالرعية الجمعم يحصون الباستيل وعكفوا على انقاضه بناء سياسياً جديداً اساسه

الراسخ العدل والحرية ودعائمهُ « من الشعب للشعب في الشعب » وخلد التاريخ اسماء دانتون ولافايت وميرابو . فياما احلى التدمير يتبعهُ البناء المتين

الثورة الاجتماعية

اذا رأيت رجالاً يطلبون اصلاحاً يؤيدهم في سبيله بعض المفكرين فقل هنالك خلل يجب تلافيهِ وفساد لا بدّ من تداركهِ

اذاً ما معنى هذا الصراخ الشامل الذي تردد نغماتهُ في اندية العالم السياسية ؟

ما هو الباعث الى اعتصابات العمال العديدة في انكلترا وايطاليا وغيرهما ؟

ما هو السبب الدافع للحركة البولشفية وما جرتهُ حتى الآن من الويلات على البشرية ؟

لا مشاحة ان هنالك موطن ضعف في النظام الاجتماعي فاين هو

لقد اجمع علماء الاقتصاد ان موضع النقص في النظام الاجتماعي الاقتصادي الحالي هو مسألة تقسيم الثروة وعلاقة العمال بالمتمولين الذين تجمع الثروات الطائلة في ايديهم فيصبحون قادرين ان يحتكموا بالعمال كيف شاءوا وشاءت مصالحهم ومطامعهم الذاتية

فالعامل الذي يعمل سحابة نهاره بعزم لا يعرف الملل وهمة لا يعتريها الكلل بعيداً عن زوجتهِ واولادهِ محروماً بعض لذات العيش وملاهي الحياة يحق لهُ ان ينال جزءا من الارباح الطائلة التي يجنيها المثري الكبير وهو جالس الى منضدتهِ لا يحرك آلة في المعمل

على هذا المذهب اعتراضات جمة ولكنها كلها مبنية على مبدأ المصلحة الذاتية الا انهُ اذا نظرنا الى المسألة من وجهتها الانسانية نجد انهُ يحق للعامل المستأجَر ان يقاسم المتمول المستأجر ارباحهُ على مبدأ نسبيّ والاّ وصلت هذه العبودية المالية الى درجة يصعب معها الصبر وطول الاناة — كما حدث في العبودية الفكرية والعبودية السياسية — فتنفجر في انحاء العالم ثورات تشبه الثورة البولشفية في شمولها وتلاحمها

وما هذه الاعتصابات والحركات الثورية الاّ اصوات احتجاج على هذه العبودية الخرساء الفاقدة الحس فلا تشعر . والخالية من العواطف فلا تحنّ وهي

حالة يأباها موقف العامل الاقتصادي فيتمرّد كما تمرد المستعبدون من قبله حينما اعتقلت افكارهم الحرة وقيدت عواطفهم الشريفة

وتتلافى هذا الشر القادح طريقتان

الاولى وهي الطريقة التشريعية السلمية المبنية على مبدأ النشوء التدريجي وهي اسلم عاقبة واضمن للحصول على الاصلاح المنشود مع المحافظة على السلام حقناً للدماء

وهي الخطة التي يتبعها لويد جورج في انكلترا وميلران في فرنسا وجيولتي في ايطاليا ومسارك في تشكوسلوفاكيا للوصول الى اتفاق يرضي الفريقين — العمال والمتمولين — وقد نجح بعضهم على ما يقال نجاحاً باهراً

والطريقة الثانية هي الطريقة الثورية المجسمة في الحركة البولشفية في روسيا وزعماؤها لنين وتشيتشرين وتروتسكي

كل اصلاح اقتصادي في القرن العشرين يجب ان يؤدي الى اكثار الانتاج في البلاد التي يحصل فيها

فالطريقة الاولى لحل هذه المعضلة الاجتماعية تؤدي الى الاصلاح المنشود لان العمال الذين يحصلون حقوقهم بواسطة التشريع القانوني يصبحون ولهم الثقة التامة بحكومة البلاد ويعتقدون انها موجودة لتنصفهم فيكون ذلك عاملاً قوياً يدفعهم للدأب المتواصل والعمل بجد واجتهاد فيكثر الانتاج وترتقي تلك الامة اقتصادياً وتجارياً ويرتفع مستوى عيشة سكانها

اما الطريقة الثانية اي الحركة البولشفية فلم تصل في طورها الحالي الى الغاية التي يرمي اليها زعماء تلك الفلسفة الاقتصادية المتطرفة ويدلنا على ذلك بعض عبارات من خطاب القاه تروتسكي في احدى المدن الكبيرة وهذه ترجمة خلاصتها معربة عن مجلة اميركية (١) قال

« نعم تغلبنا على كولشاك عدونا السياسي الاقوى ولكن هنالك عدواً اعظم واقوى من كل اعدائنا السياسيين . ألا وهو نظامنا الاقتصادي الخرب . ولكي نصلح ذلك الخراب يجب ان ندأب دأباً لم يرهُ التاريخ في احد قبلنا — ستون في

(١) Current History p. 514 Dec. 1920.

المئة من قاطراتنا لا تصلح للعمل واذا بقيت تخرب على هذه النسبة . ففي القريب العاجل تتلف اسباب المواصلات كلها فيسقط نظامنا السياسي الذي يشمل كل روسيا

« لا بد من اصلاح هذه القاطرات — والعمال الذين يصلحونها يحتاجون الى الاكل لتغذية اجسامهم والوقود لتدفئة وادارة الآلات

« وللتغلب على هذه الصعوبات نحتاج الى العمل العمل العمل الى النهاية »

« على انهُ قد يأتي يوم ننتقل فيهِ من طور التدمير الى طور البناء المتين فاذا فعلنا ذلك نكون قد نجحنا والاَّ كانت اعمالنا كلها فشلاً واخفاقاً »

وعلى كلٍّ — فالاصلاح بواسطة التشريع المبني على الانتخاب والتصويت اسلم عاقبةً واهدى الى الغاية الاقتصادية المنشودة اي تسوية الخلاف بين العامل والمتمول

هذه هي الثورة الاجتماعية التي تشغل افكار السياسيين اليوم ابنت ما يتعلق بمبادئها وسيرها باختصار اما ما يكون من امرها فالتاريخ كفيلٌ بإيضاحهِ

***

والآن نرى طلائع الثورة الاجتماعية فلنقف على الحياد لنرى ما يكون من امرها ولكن قبل ان نجني الأثمار الشهية النافعة التي نقتطفها من اشجار المدنية الغربية يتحتم علينا ان نحدث ثورة في حياتنا التهذيبية حتى تلائمنا الافكار التي نقتبسها والمبادىء التي نستنير بها لان نظامنا التهذيبي مزقنا خزائق وفوقنا طرائق

فالثورة التهذيبية في سوريا يجب ان تتخذ توحيد طرق التعليم غايتها الاولى وجعل وطنية اساليب التهذيب والهدف الاسمى الذي ترمي اليهِ

اذ ذاك تشرق علينا شمس الحياة فتنعشنا بنورها وحرارتها فنرى مصدر حياتنا منبعثاً لا من باريز ولندن ووشنطون وبتروغراد بل من كنائس القدس وجوامع الشام وسهول حوران وميناء بيروت وبساتين الساحل وجبال لبنان

سوق الغرب بلبنان فؤاد صرُّوف ب . ع